

تطور اللغة العربية عبر التاريخ

عادل العفيف الصلاحي

باحث، كلية مدينة العلوم، بوليكاك

المخلص

خلال القرنين 16 و 17 م تمت دراسة اللغة العربية باعتبارها مدخلا مهما في دراسة عبرية الكتاب المقدس نظرا للشبه الكبير بين اللغتين، هذا بالطبع إلى جانب اللغة الآرامية، وترمي هذه الدراسة جعل اللغة العبرية اللغة الأم التي انبثقت منها سائر اللغات، ويجد هذا القول تبريره ويستقي دعمه من التوراة في قصة أبناء نوح يمكن القول إذا، إن كلا من اللاهوت وعلوم لغة الكتاب المقدس، قد شكلا دافعين رئيسيين في تقدم دراسة اللغة العربية إضافة إلى الاهتمامات التجارية. لكن دراسة اللغات الشرقية ستعرف تغيرا مع بزوغ القرن 18 م خصوصا مع فلاسفة عصر التنوير، استند هؤلاء على مصادر الرحالة فاستشفوا أن هناك الكثير مما يمكن تعلمه من لغات الشرق في القرن 19 م، ستعرف الدراسات اللغوية منعطفا هاما تمثل في ثورة النسق التاريخي المقارن في حقل اللغات الهندو-أوروبية والذي سرعان ما انتقل ليشمل باقي المجموعات اللغوية، خصوصا العربية. سينتقل الاهتمام إلى دراسة اللهجات، لكونها تشتمل على تراكيب أقدم من تلك الموجودة في الفصحى والتي ستساعد في تفسير أصل أشكال التراكيب الموجودة في الفصحى.

الكلمات الدالة: اللغة العربية، مراحل، تطور، نشأة

المنافشة

خلال القرن 20 م، خصوصا بعد الحرب العالمية الأولى، ستفصل اللغة العربية عن باقي اللغات السامية وذلك لكونها لغة إسلامية ينبغي دراستها ضمن اللغات الإسلامية. كما أن نزوع تدريس العربية الفصحى ولهجاتها داخل الأقسام في كل من أوروبا وأمريكا، عامل آخر ساعد على انفصالها بعد أن كانت تصنف ضمن اللغات الميتة. وما ساعد في ازدهار اللغة العربية تخلص الباحثين النحويين العرب من عبودية ضرورة تطبيق النحو التقليدي، بإدخال طرق لغوية حديثة ساعدت بدورها في ازدهار دراسة اللهجات العربية. هذا بالرغم من تمسك الجامعات في العالم العربي بالنزعة التراثية في دراسة اللغة العربية. من هذه المنطلقات، سنقوم برحلة استكشافية في مختلف المراحل التي مرت بها اللغة العربية حتى استوت بالشكل الذي نعرفها عليه اليوم، مستثمرين منجزات المنهج المقارن في الفيلولوجيا لكل من كيس فرستينغ وجيوفاني جاربيني وبيتر بنشيد وفريدريكو كورينتي...

مراحل اللغة العربية المبكرة

يجمع الدارسين على أن اللغة العربية قد انبثقت من بيئة كانت فيها دراجة معظم الناس، على الرغم من كونها تشكل جزءا من النقوش المكتوبة. فلقد كانت العربية لهجة اندمجت داخلها بعض المبادئ الهجائية والفونيمات النبطية والتدمرية، بينما كانت الآرامية لغة الكتابة. أما بالنسبة للخط العربي، فهناك بعض المصادر العربية التي تربطه بالخط السرياني أو أنه ذو أصل سرياني. لكن الباحثين رفضوا نظرية الأصل السرياني، إذ يعززون فكرة تطور الخط العربي إلى أصل نبطي. وقد ابتدأ الخط العربي ينفصل عن خط النقوش النبطية بدءا من القرن الثاني الميلادي.

اللغة العربية في الجاهلية

أثرت التقسيمات التي أقامها الباحثون حول الكلمات الثلاث المذكورة بالقرآن الكريم (عربي - أعراب - عرب)، ناهيك عن التمييز بين العرب البائدة ودون البائدة، في فكرة وحدة اللغة العربية. فقد نزع النحويون إلى وضع فروق لهجائية تستند على التوزيع الجغرافي. إذ كانت عربية الشمال منقسمة إلى شرقية في شمال شبه الجزيرة العربية، وهي لهجة تميم. بينما الجهة الغربية تتضمن كلا من لهجة الحجاز المطابقة لهجة قريش. من الواضح أن نطق اللغة العربية في شبه الجزيرة العربية متباين قادم ذلك العالم الألماني كارل فولرز إلى ادعاء نزول القرآن الكريم بنص قديم عامي يطابق لهجة النبي عليه الصلاة والسلام، ثم تحويله فيما بعد إلى لغة الشعر الجاهلي قبيل فترة الفتوحات الإسلامية. تم ذلك رغبة في رفع القرآن مرتبة الشعر الجاهلي.

شكلت هذه النقطة الأساس الذي انطلق منه جل الباحثين الغربيين فيما بعد، رغم رفضهم نظرية فولرز وفكرة تنزيل نص سماوي مقدس بلهجة دارجة. من هنا يحصر كيس فريستينغ الفروق اللهجية بين اللهجات الشمالية واللهجات الغربية في ثمانية فروق تختص في مجملها بالجانب الصوتي. كما أشار الباحث إلى وجود اختلافات بنوية خصوصا في صيغة النصب والرفع للاسم بعد (إن) و (أن) من ناحية، مع فرق استخدام (ما) في اللهجتين من ناحية أخرى. هناك أيضا نقطة ترتبط بصميم النحو، تتعلق بالمطابقة العددية بين الفعل والفاعل في بعض اللهجات العربية (ظاهرة: أكلوني البراغيث). فرغم تشبث العرب بفكرة الوحدة اللغوية، نجد الغربيين يشكون في مصداقية هذه الفكرة بتقسيم وفصل لهجات القبائل عن النمط الشعري والقرآني. يتضمن هذا الأخير علامات إعرابية ستختفي أو سيتم إهمالها في النمط الجديد من العربية وهي العربية المولدة بعد الفتوحات.

و يرى الباحثون أن التغيرات التي طرأت على العربية المولدة تجد تبريرها فيما قبل الفتوحات الإسلامية. على هذا الأساس، اعتبر كورينتي في مساجلته مع جوش بلاو أن كلام البدو كان يحتوي على علامات الإعراب. لكن إهمالها لا يؤثر على الجملة لأن المورفيمات التي تعبر عنها زائدة. أما بلاو فيرى أن مسألة الزيادة عادية، لكن التحول الذي طرأ على العربية يقتضي اختراع مورفيمات جديدة. لا يوجد دليل يفسر أن التطور من العربية القديمة إلى المولدة له علاقة بالحمل الوظيفي لعلامات الإعراب. في حين يرى ابن خلدون أن البدو يتكلمون بما تملئهم عليهم سليقتهم اللغوية دون استخدام علامات الإعراب. تجدر الإشارة إلى أن الفساد اللغوي دفع النحويين العرب إلى تعقيد اللغة واختراع النحو العربي.

خلاصة، استنتج الباحثون أن لغة القرآن جاءت مشابهة للهجات الشرقية من جهة وإلى عدم تباعد اللهجتين الشرقية والغربية باستثناء (ظاهرة: أكلوني البراغيث). إن فارق الازدواجية اللغوية قد حذف بعدما اتضح أن النصوص العربية الجاهلية كانت خالية من الأخطاء اللغوية. فغيابها يعني انعدام الفارق بين اللغة الشعرية واللغة الدارجة مع استخدام علامات الإعراب.

نشأة العربية الفصحى الكلاسيكية

ارتبط ظهور مسألة التعقيد اللغوي بدوافع رئيسية أدت إلى تعقيد اللغة. إذ برز نظام كتابي جديد عقبه تعقيد نمط لغوي جديد انتهى بتعقيد أسلوب الشعر والنثر. ويرجع الدارسون ضرورة التعقيد إلى ثلاثة أسباب:

أولا: الفروق المتباينة بين لغة البدو وبين اللهجات الحضرية.

ثانيا: رغبة الحكومة المركزية فرض نظام لغوي موحد يهدف السيطرة.
ثالثا: إدخال تراكيب وأصوات أدت إلى توسع المعجم العربي.

بناء عليه، وأصبحت مسألة توثيق النصوص ضرورة ملحة بعد الفروق المتباينة بين النصوص العربية. دفع ذلك العلماء إلى اعتماد نظام لغوي موحد انطلاقا من النص القرآني. ففي البداية اعتمدت شرائح من مواد مختلفة لتدوين الآيات، سيتم جمعها بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم وحصرها داخل مصحف وحيد في عهد عثمان بن عفان. مثلت لغة الحضر المستعربين خطرا يهدد الصحة اللغوية قاد النحويين إلى تقعيد اللغة بالاستناد على القرآن الكريم والشعر الجاهلي. داخل هذا الإطار قبل النحويين كل ما ورد من القرآن الكريم وكل ما هو محفوظ من الشعر الجاهلي، وإضافة إلى شهادات البدو الموثوق بعربيتهم. كما عرف تقعيد اللغة العربية كتابة قواعدها. وقد صاحب ذلك دراسة معجمية رغبة في الحفاظ على المعجم العربي القديم. لقد شكل القرآن والشعر الجاهلي إجراءات توليديين لكل أسلوب أدبي منشود. إلا أن مظاهر العمران المتجلية في بروز مدن حضارية ستفرض نوعا آخر من النمط الشعري، أكثر تحررا من النموذج البدوي الكلاسيكي مثل إدخال التعبيرات العامية وتكسير بعض القواعد النحوية والصرفية. غير أن النمط الجديد لن يلغي القديم على اعتبار أن الشعر الجاهلي هو الشعر الرسمي الرفيع المستوى. كما يضاف لذلك بعض التقاليد الأجنبية التي وجدت لنفسها مكانة داخل الأدب. لقد حظيت اللغة العربية بمكانة رفيعة ارتبطت أساسا بكيان المتلقي والنايع أساسا من اعتبارات دينية حضارية، لكون العربية لغة القرآن الكريم ورمز العروبة والإسلام. مع بزوغ القرن 9 م، استبدت اللغة العربية بفقدان مكانتها الرفيعة أدبيا حيث ستعوضها اللغة الفارسية شيئا فشيئا. مع ذلك عرفت اللغة العربية استقرارا نسبيا لكونها لغة القرآن من جهة، كما ظلت مصدرا للاقتراض اللغوي إثراء للتركيب من جهة أخرى.

ظهور العربية المولدة

لقد كان الواقع اللغوي في مراحل نشأة الإمبراطورية الإسلامية غير موحد، دفع الملك عبد الملك بن مروان إلى القيام بإصلاحات أولها تعريب الديوان بدءا من خرسان عام 124 هـ. وستحتل بعده اللغة العربية الصدارة داخل شبه الجزيرة العربية، خصوصا بعد إحلال العربية محل الفارسية في القرنين. كما تقلص دور القبطية في مصر حيث أصبح محصورا في الكنيسة بحلول القرن 14 م. أما شمال إفريقيا، فستعرف عمليتي تعريب اقتربتنا بموجتي الفتح العربي. كان الفتح الأول في القرن 4 م، احتلت حينه القيروان المركز باعتبارها سبلا متدفقا من الثقافة العربية باتجاه الأطراف مع احتفاظ جل القبائل البربرية بلغتها. لكن الفتح الثاني في القرن 11 م، سيعرف مدا مهما للعربية بهجرات ثلاث قبائل (بنو سليم ، بنو هلال ، ومعقل) باتجاه المغرب. غير أن هناك من القبائل البربرية من ظل يتحدث البربرية بنسب متفاوتة. وتقترب فكرة العربية المولدة ببروز لهجات عربية حديثة باعتبارها مصدرا في عملية تحقيب العامية العربية بعد الفتح الإسلامي. تميزت هذه الفترة بازواجية لغوية بين العربية المولدة والعربية الكلاسيكية. إذ تطورت اللهجات الحديثة في التعبير عن الوظائف النحوية، خصوصا بعد اختفاء علامات الإعراب مع وجود تغيير جذري في بناء الجملة. فلقد أصبحت الجملة الاسمية مصدرا أساسيا في تركيب الجمل عوض الفعلية.

ويرى ابن خلدون أن استخدام العربية في الفتوحات الإسلامية واكمه إدخال تراكيب وأصوات جديدة أدت إلى نوع من الفساد اللغوي. ويتجلى ذلك في ارتكاب أخطاء على مستوى النطق فانبتت من ذلك العاميات، سارع بعدها النحويون إلى تقعيد العربية صونا من هذا الاعوجاج. لكن شارل فرجسون يفترض وجود جذر لغوي تفتقت منه سائر اللهجات الحديثة، كما فسّر الاختلافات بين اللهجات في عملية التداخل بين العربية واللغات الأصلية بالمناطق. أما أصحاب النزعة اللغوية ونظرية التطور المستقل، فيبنون موقفا مخالفا يرون عبره تطور اللهجات بشكل مستقل. لكنها تشابهت بعد ذلك بسبب الاتصال.

ونجد فيليب مركياس يشير إلى التأثير البربري بنسب قليلة في الظواهر النحوية للعربية بالجزائر، أي أن اللهجة تداخلت فيها كل من البربرية والفصحى. نفس الشيء في المنطقة السورية حيث تداخلت الأرامية بالعربية. من هنا يصرح بنشيد (1993) بأن اللغة الأصلية تشكل الطبقة التحتية في لهجة المنطقة نتيجة تداخلها بالعربية.

بالمقابل نجد البروفسور الألماني فيرنير ديم (1979) قد قلل من فكرة تأثير اللغة الأصلية في شمال إفريقيا بالاستناد على شريطين: أولا: وجود ظاهرة لغوية في كل من اللهجة الحديثة واللغة الأصلية. ثانيا: غياب تلك الظاهرة من أي منطقة أخرى. تجدر الإشارة إلى بعض التغييرات التي مست مركب الإضافة التحليلي وسوابق الجهة في اللهجات العربية للتعبير عن الاستمرار أو المستقبل. إذ نجد تباينا ملحوظا بين كل من اللهجات الآتية: المغربية، والمصرية، والسورية، والعراقية... خلاصة، استبعد كل من فرجسون وديم تأثير الفصحى في اللهجات وإهمال الفصحى.

العربية الوسيطة

تشير العربية الوسيطة إلى ذلك الضرب من اللغة الذي يجمع بين نمطين لغويين مزدوجين، تشكلت من خلالهما وحدة قائمة مستقلة بذاتها عن كل من العربية الفصحى واللهجات العامية المولدة. تحتل العربية الوسيطة منزلة بين العامية والفصحى نظرا لوجود فارق كبير بين اللغة المكتوبة ولغة الكلام. ولعل وعي الناس بإمكانات الفصحى نتج عنه تحويلات مختلفة على الجمل والعبارات أفرزت لغة وسيطة جديدة. لكن ذلك الوعي غالبا ما تعثر في تقدير صلاحية أو استحالة بعض التركيبات بفعل الازدواجية اللغوية. لا يقتصر ظهور العربية الوسيطة على المسلمين فقط، بل يشمل حتى اليهود والمسيحيين اللذين غالبا ما استخدموا كلمات دارجة في لغتهم المكتوبة نتيجة ضعف تأثرهم بالقرآن الكريم. فمصطلح العربية الوسيطة أصبح يرادف النصوص التي ضمت في كتاباتها كل من النموذج العربي الكلاسيكي والنموذج العامي. وقد اعتمدها الباحثون فيما بعد لتفسير نشأة اللهجات في تاريخ العربية.

وتتضمن العربية الوسيطة عند المسلمين كلا من نصوص البرديات ونصوص الألف ليلة وليلة والقصص العربي. تحتوي هذه النصوص خليطا متجانسا من الفصحى وسمات العامية المرتبطة أساسا بوظيفة تلك النصوص الأدبية والقصصية. كما لم تخلو الرسائل العلمية لصفوة المثقفين من بعض السمات العامية التي كانت تطفو لاشعوريا بدرجة ما. في هذا الصدد نسوق كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ. أما العربية الوسيطة ذات الصبغة اليهودية فتسمى عربية اليهود. يرجع تاريخ هذه الأخيرة إلى مجموعة من الوثائق المكتشفة في القرن 9 م، وسميت بوثائق الجيزة. تضم هذه الوثائق مجموعة من النصوص تحتوي السمات العامية. وتتميز عربية اليهود بكونها كتبت بخط عبري يحتوي على قدر كبير من الكلمات العبرية الأصل. وتعزى أسباب هذه الظاهرة إلى وضعية اليهود داخل الإمبراطورية الإسلامية، وكذلك الرغبة في إسناد نص الكتاب إلى مؤلفه اليهودي.

بينما تشكل منطقة جنوب فلسطين معقل نصوص العربية الوسيطة المسيحية، امتزجت فيها كل من الترجمات اليونانية والسريانية يصعب من خلالها التفرقة بين العناصر النحوية من اللغة الدارجة وتلك العناصر الناتجة عن الترجمة. تجدر الإشارة إلى العربية الوسيطة المعاصرة التي تعتمد توظيف الدارجة بشكل واع داخل الأدب المعاصر. ولعل المقصد الأساسي الكامن وراء توظيف الكتاب لذلك، إضافة صبغة محلية على نصوصهم. لكن رغم محاولاتهم تضمين النصوص صفة العامية، فمن العسير اعتبار لغتهم مثلا على العامية الصرف، إذ ظلوا حبيسي سطوة العربية الفصحى.

نشوء الفصحى المعاصرة

توغلت الثقافة الأوروبية بعد حملة نابليون لمصر، وتجلت ذلك في أفكار التنوير التي أصبحت جزءا من الثقافة المصرية، وقابلها موقف متحفظ من هذه الأفكار ومدى صلاحيتها لتقاليد الأمة الإسلامية. لقد لعبت اللغة العربية دور الوسيط في نقل حمولة الفكر الغربي السياسي، فظهرت مصطلحات جديدة ترادف مثيلاتها في الفكر الأوروبي نخص منها: الحكومة الدستورية، والبرلمان، والمواطنة، والاشتراكية، والشوعية... كما اقترضت الإمبراطورية العثمانية -الحاكمة في تلك الفترة- جل الألفاظ العربية. مصطلحات عربية. أما بخصوص الأفكار الغربية، فقد كانت جل ردات الفعل تجاهها تتسم بالقبول في البداية، وتجلي ذلك في الكتابات التي حملت مظاهر الإصلاح والتحديث. لكن تزايد هيمنة الغرب دفع باتجاه نبذ الأفكار الدخيلة والدعوة إلى حركة نحو الخلف، وإحياء لقيم السلف الصالح. أدى هذا الدور الجديد للغة العربية إلى الرفع

من مكانتها , صاحبه بروز الحركة القومية التي ركزت على الرباط الوثيق بين الهوية العربية ولغتها. و قد أعطى المجمع العربي المنعقد عام 1913 م بباريس دفعة قوية للعربية. تجسد ذلك في استخدام اللغة العربية في التعليم وفي الشؤون القضائية والقانونية.

كان الوضع مختلفا في بلاد الشام , مادامت هذه المنطقة تعج بالمسيحيين الذين لا تتعارض أفكارهم وأفكار الغرب مع دعوتهم إلى الفصل بين اللغة والإسلام. وشكلت الصحافة العربية المكتوبة نقطة تقدم مهمة رافقتها عملية تحديث في المعجم العربي , التي تارجحت بين القبول والرفض. كان للمعجم اللغوية (مجمع اللغة العربية فيما بعد) دور مهم تجلى في الحفاظ على وحدة اللغة العربية وفق مقتضيات العصر. ففي العصر الحديث , حاولت المجمع اللغوية تحديد الاشتقاق اللغوي للكلمات الأجنبية في المجالات العلمية. لكن البعض ظل يتقلب بين رفض عملية الاقتراض وبين اعتبار عملية التعريب هي الحل الوحيد للحفاظ على تماسك اللغة العربية. لقد استفادت الفصحى المعاصرة من نحت الكلمات الجديدة والاختلافات اللغوية الإقليمية , إلى جانب لغة الإعلام المتأثرة لغويا بالغرب. لكن البعض ينزع نحو المطابقة بين الفصحى المعاصرة والكلاسيكية. أما بخصوص النثر , لا نجد تمايزا ملحوظا بين الفصحى الكلاسيكية والمعاصرة. ويرجع ذلك إلى رغبة الكتاب في التماهي مع الفصحى الكلاسيكية في كل من النحو والمعجم. إلا أن الثراء والتنوع المعجمي للفصحى المعاصرة يخلق تباينا في كتابات العرب بشكل يسهل معه التمييز بين نص مغربي ونص مصري أو خليجي. والسبب في ذلك الاختلافات المحلية في صياغة المفردات، بالإضافة إلى الإرث الاستعماري الذي يضرب بجذوره عميقا.

المصادر المعتمدة

فرستينغ كيبس : (اللغة العربية : تاريخها ومستوياتها وتأثيرها). ترجمة محمد الشرفاوي , المشروع القومي للترجمة 443. المجلس الأعلى للثقافة 2003.

- Blachère Régis (1961): (Elément de l'arabe classique).Paris Maisonneuve (Edn 1985).
- Caubet Dominique: (L'arabe marocain.1. phonologie et morphosyntaxe.2.syntaxe et catégories grammaticales) textes, Paris and Louvens : Peeters.1993
- Cohen David (Le dialecte arabe hassaniya de Mauritanie- parler de la Gabla-).Paris :Klincksieck.1964.
- Fassi Fehri, Abdelkader : (Linguistique arabe : forme et interprétation).Rabat : Faculté des lettres et des sciences humains .1982.
- Garbini Giovanni: (La position du sémitique dans le chamito-sémitique.) In actes du premier congrès international de linguistique sémitique et chamito-sémitiques).Paris 16-19 juillet 1969, ed.André Caquot and David Cohen. The Hague and Paris: Mouton.
- Marçais Philipe (Le parler arabe Djedjelli , nord constantinois ,Algérie) .Publication de l'institut d'études orientales d'Alger .Paris : Librairie d'Amérique et d'Orient Adrien-Maisonneuve.n.d 1956.

